المفارقة البنائية في رسم شخصية ابن القارح في رسالة الغفران

د. محمود الحلحولي
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
الجامعة الهاشمية - المملكة الأردنية الهاشمية

المفارقة البنائية في رسم شخصية ابن القارح في رسالة الغفران

د. محمود الحلحولي
قسم اللغة العربية – كلية الآداب
الجامعة الهاشمية – المملكة الأردنية الهاشمية

ملخص البحث:

تقف هذه الدراسة عند أنواع المفارقة التركيبيَّة ومدلولات القول الذكيّ الذي يقال ويراد غيره، من وجهة فنيَّة بلاغيَّة وهي لا تبحث في كلّ أنواع المفارقة، بل تتناول صورًا من(المفارقة التركيبيَّة) فقط، كما أنها لا تدرس رسالة الغفران على أساس المحاكمة الدينيَّة . معلوم أن ابن القارح الأديب الحلبي، بعث برسالة إلى أبي العلاء يوضح له مجموعة من الآراء اللغويَّة والنقديَّة حول ما كان مُختلفًا فيه في الأوساط الثقافيَّة آنذاك، ومن ضمن ذلك ترجيحٌ من ابن القارح لشعر البحتريّ على شعر المتنبيّ، الأمرُ الذي أثار حفيظة أبي العلاء، فكتب رسالة الغفران التهكميَّة على ما ساد في عصره، مستخدمًا فن المفارقة سلاحًا فتّاكًا في وجه أصحاب الآراء التي يخالفها من شتى المجالات الثقافيَّة .

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد الكريم وآله وأصحابه، وبعد، فإن هذه الدراسة تحاول التعامل مع النص الأدبي تعاملاً حديثا، فالنص الأدبي مالك لأساليب لغوية تجعله حيًا على الدوام، وهذه الأساليب هي التي أخرجته من مباشرته إلى معان أوائل وثوان وثوالث، وهدف الدراسة هنا الوقوف على المعاني التي ابتعدت عن التقريرية، والوصول إلى ما وراء النص واستكناهه. وإن دراستي هذه تأتي وفق المنهج الأسلوبي الذي يتناول السخرية الأدبية على أنها فن من فنون القول يحتاج إلى فطنة وذكاء، حتى نستطيع اصطياد المفارقة التي تثير الضحك، والأدب الساخر يعبر عن حالة رفض للواقع من دون أن يخلق حالة مواجهة أو صدام معه. وأبو العلاء اعتمد في سخريته في رسالة الغفران على المفارقة البنائية. وإن جلّ الدراسات التي كتبت عن المعري كانت حول فلسفته وصناعته الفنية للشعر، وعن حياته الفكرية ورأيت أن أقف عند جانب مما أبدعه في رسالته، وهو رسمه لشخصية ابن القارح الأديب الحلبي الذي فضل البحتري على المتنبي، مما أثار المعري ورد بكل حنكة على هذا الرأي ونسج نسجا محكما دل على ذكاء في الرد [1].

---

١ علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٥، ص١٦٢. وينظر في دراسة رسالة الغفران ١– الغفران لأبي العلاء المعري : دراسة نقدية /مكتبة الدراسات الأدبية ، المؤلف بنت الشاطئ. الناشر دار المعارف،١٩٦٨، البنية القصصية في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري: دراسة حسين الوادالناشر الدار العربية للكتاب،، ١٩٧٥ البنية العميقة في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، دراسة سيميائية ، نسيمة حمدان، الجزائر ،جامعة مولود معمري إشراف أ.د عبد الحميد بورايو من جامعة الجزائر ٢٠١١ فرج بن رمضان، القص، التخيل، السخرية في رسالة الغفران: من خلال تحليل نص التوبة سلسلة دراسات في اللغة والأدب والحضارة ، Faraj Ramadan الناشر دار البيروني للنشر، ١٩٩٦ ٢٠٠٨ وغيره مما سيرد في هوامش البحث.

وثمة تعريف آخر للمفارقة يوضحه "ميويك "بقوله أن المفارقة: "طريقة في الكتابة، تريد أن تترك السؤال قائما عن المعنى الحرفي المقصود، فثمة تأجيل أبدي للمغزى. والتعريف القديم للمفارقة أنها :" قول شيء والإيحاء بقول نقيضه "قد جاوزته إلى مفهومات أخرى، فهي قول شيء بطريقة لا تستثير تفسيرًا واحدًا، بل هي سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغيرة والمتجددة"[1]. وترى الدكتورة نبيلة إبراهيم أن المفارقة: " ترفض المعنى الحرفيّ للكلام لصالح المعنى الضد، "عكس المتوقع " المعنى الذي لم يعبر عنه، وهي لا تهدف إلى أن تجعل الناس يصدقون، بل إلى أن تجعلهم يعرفون، وهم لا يعرفون حقائق بقدر ما يعرفون احتمالات للحقائق، ومن شأن الاحتمالات أنها لا تدعُ للإنسان أرضًا صلبة يقف عليها، وهي سمة أساسية كذلك من سمات المفارقة"[2]. وأوجز محمد العبد عناصر المفارقة في وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد : المستوى السطحي للكلام على نحو ما يعبر به، والمستوى الكامن الذي لم يعبر عنه، الذي يلحّ القارئ على اكتشافه ولا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض أو التناقض بينهما. ولابد من وجود ضحية في المفارقة "[3]، وتقوم شعرية المفارقة بشكل أساسي على التضاد بين المعنى الظاهري والباطني، وكلما اشتد التضاد بينهما، ازدادت حدة المفارقة في النّص، فهي " لغة اتصال سريّ بين الكاتب والقارئ،

---

١ وهبة، مجدي وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ١٩٨٤،ص٣٧٦.

٢ دي سي ميويك، موسوعة المصطلح النقدي، المفارقة وصفاتها، ترجمة د .عبد. الواحد لؤلؤ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١،١٩٩٨،المجلد ٤ ،ص٢٧ .

٣ العبد ،محمد ،المفارقة القرآنية ،دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٦،ط ٢ ، ص٢٠١ .

وهي قد تكون جملة، وقد تشمل العمل الأدبي كله"[1]، ولا تكون المفارقة مفارقة "إلا عندما يكون أثرها مزيجًا من الألم والتسلية"[2]، ولا بد من توافر حسّ للمفارقة " فحسّ المفارقة لا يشمل القدرة على رؤية تناقضات المفارقة حسب، بل القدرة على تشكيلها في الذهن كذلك، وهو يشمل أيضًا قدرة المرء، إذ يواجهه أي شيء على الإطلاق أن يتخيل أو يتذكر أو يلاحظ شيئًا يشكل النقيض على مستوى المفارقة"[3].

إنَّ بعض تعريفات المفارقة لها مفهوم ينطبق على النص كلّه، وليس على جزء منه. يرى الدكتور" سعد مصلوح": "أننا يمكن أن نتلمس مجال المعالجة الأسلوبية الإحصائية بين تعريفين شهيرين من تاريخ الأسلوب الأول: تعريف يحد الأسلوب بأنه مفارقة (departure) أو انحراف (depiathon) عن أنموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه معيار أو نمط (norm)، وبالمقارنة بينهما يحصل التمييز بين النص المفارق والنص النمط، ويشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما"[4] وهذا ما يجعل المفارقة تنطوي على المضحك والمبكي في آنٍ واحد، ولهذا فهي تدفع القارئ إلى "البسمة التي تختفي بمجرد أن ترتسم على الشفاه"[5]. ويظهر من أهداف المفارقة إخراج مكنونات المستهدف بالسخرية النفسيَّة لنرى ما فيه من "متناقضات وتضاربات تثير الضحك"[6]. ويشترط في

---

١ إبراهيم، نبيلة ،المفارقة، ، مجلة فصول، المجلد السابع العددان الثالث والرابع ، سبتمبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧،ص١٣٣.

٢ ميوك ،المفارقة ،(م.س) ص١٩ .

٣ ميويك ،المفارقة وصفاتها، (م.س) ص ٥٤ .

٤ مصلوح ،سعد ،في النص الأدبي ،(دراسات أسلوبية إحصائية) ،عالم الكتب في مصر ـ ٢٠٠٢ م ،ص٢٤.

٥ إبراهيم ،نبيلة ،المفارقة ،(م.س) ،ص ١٣٢.

٦ إبراهيم ،نبيلة ،المفارقة ،(م. س) ،ص١٣٢.

نص المفارقة الوصول في النهاية إلى "وحدة من الصياغة الموضوعية المتكاملة" [1].وتأتي المفارقة على أنواع منها : "المفارقة اللفظية ": وهي تغيير في المعنى، أو تغيير للكلمة من المعنى المباشر إلى المعنى غير المباشر، ولا بد من حدوث انقلاب في الدّلالة من المعنى القريب في الجملة إلى المعنى البعيد المقصود. و"مفارقة الأحداث": هي انقلابٌ يحدث مع مرور الزمن، وتكون وراء الأحداث قوةٌ خارقة أو قدرية أو ساخرة أو مزاجية معادية أو غير مبالية، و"المفارقة الدراميَّة ": هي نسج شخصية جاهلة في نسيج العمل الأدبيّ، وتسير مع الفضاء السّردي، وتتطور الأحداث وهي غير مدركةٍ لجهلها، ولكنّ الجمهور يلاحظ هذه الشخصية ويضحك ساخرًا منها، وقد تتنوع صفات الشخصيات في العمل وتتخذ أطرافًا من الغفلة والسّذاجة، وهذا التعدد للشخصيات وللصفات، يتيح للمفارقة مجالًا لتمرير الدّهشة والسّخرية والضّحك لدى الجمهور. و" المفارقة التركيبية أو البنائية": هي التي تقوم على الاعتماد المباشر على ألوان البلاغة وأنواعها من بديعٍ وبيانٍ ومعانٍ. ويذهب ناصر شبانة إلى أن المفارقة البنائيَّة شبيهة بالمفارقة اللفظيَّة من حيث إنها وسيلة من وسائل إظهار دلالتين، إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة، إلا أن الاختلاف يكمن في أنَّ البنائيَّة توجب جهل المتكلم أو الشخصيَّة الموظفة الذي يستلزم القارئ أو السامع [2]. فالمفارقة البنائيَّة أداتها و وسيلتها لتحقيقها ضرورة وجود شخصية المتحدث السّاذج المتخفّي وراء وجهة نظر الكاتب. فيما يذكر محمد العبد أنَّ هذه المفارقة تظهر في النص القرآني، وذلك حينما يجعل متكلمًا آخر ينزل بغيره تهكمًا، فيصير هذا التهكم ذاته ينقلب للتهكم بهذا المتكلم، وهو بالطبع يجهل ذلك ،لكنه

---

١ إبراهيم ،نبيلة ،المفارقة ،(م .س) ،ص١٤٠.

٢ ميويك ،المفارقة وصفاتها ،(م. س) ص٣٢ ،وينظر: شبانة ،ناصر ،المفارقة في الشعر العربي الحديث...،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط١، ٢٠٠٢ ،ص٧١ .

مُـدْرَكٌ عنـد القـارئ أو المـستمع أو الملاحـظ ومعناهـا(IRONY) يقابـل الـتهكم والسخرية. والتهكم مصطلحٌ بلاغيٌّ تناوله بعض البلاغيين العرب، فالزركشيُّ يعرف التهكم بأنه : الاستهزاء، ومن هنا يجوز لنا القول إنَّ ظاهرة المفارقة التي يهتم بها اليوم علماء الدّلالة والأسلوب قد عَرَفَتْ طريقها على نحو ما إلى البحث البلاغيّ العربيّ القديم، وإلى بعض المباحث اللغويَّة اليسيرة تحت مصطلح التّهكم بالمخاطب، فالمفارقة قد تلتقي مع التهكم من حيث الاستهزاء بالمستهدف و السخرية و جعله مثيرًا للضحك، لكنَّ المفارقة أعمُّ من التهكم والسخرية ،لأن التهكم يفتقر إلى عنصر التناقض بين ظاهر المعنى وباطنه، وهذا هو الشّرط الأساسيُّ في المفارقة ،لهذا علينا أن نوسع من نظرتنا للمفارقة على أساس أنها تضم صورًا قد يكون من التعسف أن نحصرها في إطار التهكم والسخرية وحده. والمفارقة يتجسد دورها في التهكم بكونها أداة أسلوبيَّة فعّالة له تبين مقصد صاحبه[1]. ومن خلال هذه الأخيرة سندرس رسالة الغفران لأبي العلاء المعريّ التي قام فيها بتوظيف شخصية ساذجة أو متكلم بالنيابة عنه، وهو ابن القارح، ممّا يجعل القارئ يرنو إلى تصحيح ما تقوله هذه الشخصية، وفي هذه المفارقة نجد القارئ

---

١ ينظر: العبد ،محمد ،المفارقة القرآنية ،(م.س) ص٢٠١ ،حسني ،عبد الجليل يوسف ،المفارقة في شعر عدي بن زياد العبادي ،دراسة تطبيقية ،الدار الثقافية للنشر ،القاهرة ،ط ١، ١٩٩٩،ص ١٤ . والزركشي : بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٦٥١هـ) ،البرهان في علوم القرآن ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار الجيل ،بيروت ،لبنان ،د ط ،١٩٨٨،ص ٦٠ . و بعلبكي ،رمزي منير ،معجم المصطلحات اللغوية ـ دار العلم للملايين ١٩٩٠م ،ص٢٦١ . وينظر: خالد سليمان ،المفارقة والأدب ،دراسة في النظرية والتطبيق ،دار الشرق ،عمان ،ط ١٩٩٩ . الواد ،حسين : البنية القصصيّة في رسالة الغفران ، تونس ،دار الجنوب للنشر ،١٩٩٣. بن رمضان فرج ،القص ،التخيل ،السخرية في رسالة الغفران ،سلسلة دراسات في اللغة والأدب والحضارة ،عدد٢،صفاقس ،منشورات دار البيروني للنشر ،صفاقس ،ط ١،مارس ١٩٩٦م، ص ١٣،ص ٢١٧.

واعيًا ومدركًا لمقصد الكاتب الساخر، في حين تكون هذه الشخصية التي وظفت جاهلة ذلك. ومن أذرع المفارقة التركيبية (البنائيَّة) التي رصدتها في رسالة الغفران:

١- التهكم (السّخرية). ٢- التعريض (التشنيع). ٣- الكناية. ٤- الذم بما يشبه المدح.

وسوف أوضّح هذا في هذه الرّسالة الذي يُلاحَظ على أغلبها البعدُ الموحي الذي يحمل على كسر توقع المتلقي من خلال توظيف المتناقضات توظيفًا يحمل السخرية في آنٍ والدهشة في آخر، والهجوم في نواحٍ متعددة ليصل إلى المركزيَّة الأساسيَّة، ألا وهي التعجبُ من الواقع الذي عاشه المعريُّ.

* * *

ذكـرتُ أنَّ المفارقـة التركيبيَّـة تتنـاول مجموعـة الأبنيـة والفنـون اللغويَّـة، وأحيانًـا المعنويَّة التي يتسلح بها الكاتب لإثارة المتلقي، وأحيانًا لإضحاكه من حال المستهدف بالسخريَّة التي هي محطُّ اشتغال المبدع في النص، وخاصة في باب التّهكم والسّخرية.

المفارقة التركيبيَّة في رسم شخصيَّة ابن القارح مع شخوص شعراء جهنم :

أولًا: التهكم : وهو استخدام الكلام للتعبير عن معنى مغاير للمعنى الحرفي بقصد السخرية. وفي اللغة الأجنبية: Irony(comm.) : تهكم :Antiphrasis قلب المعنى، والتهكم عند الأدباء "ليس مجرد أداة أدبية وفنية لصياغة أعمالهم، بل يمكن أن يكون بمثابة منهج استطاع أن يشكل رؤيتهم للحياة ذاتها، وإن استخدامهم للأدوات الفنية المتعددة للتهكم يخضع لهذه الرؤيا، فالتهكم يتحكم في كل من الشكل والمضمون، ويمثل ركيزة أساسيَّة تنهض عليه أعمالهم [1]. والتهكم يمتزج بالشّفقة والعطف،أي أنها لا تعني القسوة والإجحاف، والكاتب "مهما بدا موضوعيًا في قسوته، فإنها لا يمكن أن تصل إلى حد التجريح "[2]. أمَّا التهكم بلاغيًا: فمن تفعّل، قولهم تهكمت البئر، إذا تساقطت جوانبها وتهدمت"[3] وهو شدة الغضب ،لأن الإنسان إذا اشتد غضبه فإنه يخرج عن الاستقامة وتتغير أحواله... ويرد على أوجه عدة، منها :

١– أن يكون واردًا على جهة الوعيد بلفظ الوعد تهكمًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿فبشّرهم بعذاب أليم ﴾. [آل عمران:٢١] ٢– أن تورد صفات المدح والمقصود بها الذم، ومثاله قوله تعالى:﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾. [الدخان : ٤٩] ،لأن المقصود هو

---

١ راغب، نبيل، الأدب الساخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص٤٥ .

٢ راغب، نبيل، الأدب الساخر، (م. س)، ص٤٥ .

٣ الزمخشري، محمود بن عمر(٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥مادة هكم، ٢/ ٥٥٠ .

الاستخفافُ والإهانة، ولهذا ورد في حق من كان حقه دخول النار.٣- إذا دل على القلّة :ومثاله قوله تعالى﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾. [الأحزاب: ١٨]. فهذا حاله دالٌ على القلّة، لأن المضارع إذا سُبِقَ بقد فهو دالٌ على القلّة، والغرض هنا التكثير والتحقيق للعلم بما ذكره، وإنما أورده على جهة "التهكم بهم والاستهانة بحالهم، حيث آثروا الخدع والمكر جهلا بأن الله تعالى غير مطلع على تلك الخفايا، ولا محيط بتلك السرائر، فأورده على جهة التقليل والغرض به التحقيق انتقاصًا بحالهم في ظنّهم لما ظنوه في ذلك "[1]. ورسالة الغفران تحتوي العديد من الصّور الفكاهيَّة والتهكميَّة في رسم شخصيَّة ابن القارح، وسأتناول أنواع التهكم الموجودة في هذه الجزئيَّة من رسالة الغفران باعتبارها جزءًا من المفارقة التركيبيَّة.

التهكم بالعيوب النَّفْسيَّة والخلقيَّة: و يراد به نسبةُ عيبٍ إلى شخص، أو تفخيمُ عيبٍ في شخص، وسيلة إلى تهذيبه وإصلاحه، فهو نوعٌ من الزجر والردع، يهدف إلى التّشهير بالمستهدف بالسخرية بشكل لائقٍ غير مباشرٍ آخذًا شكل العقوبة غيرِ المباشرة، بغية إصلاح الفساد النفسيّ والخلقيّ عند الشّخص، وهذه السّخرية هي التي تحول بيننا وبين كراهيتهم ،لأن ضحكاتنا منهم وسخريتنا بهم تخفّف من غيظنا وغضبنا عليهم، وتأخذ أحيانًا شكل التّشفي أو التّشهير المقصود بصفات أناسٍ نقول: إنهم ما كان لهم أن يفعلوا كذا، أو أن يقولوا كذا ... و يستخدم صاحب المفارقة اللغة وفجواتها البلاغيَّة التي تحتمل أكثر من معنى سلاحًا له، أثناء تقريعه للضحية، ربما استعان بقدرته على المناقشة معتمدا على علمه في إثبات خطأ المستهدف بالسخرية

---

١ ينظر: يحيى بن حمزة، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، (٧٠٥هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، منشورات مؤسسة النصر، طهران، بدون تاريخ، ص١٦١ فما بعد.

وشطحه من خلال مناقشته والاستهزاء الدفين بأقواله. ففي بداية حديث المعري حول أهل النار يرى القارئ أن " ابن القارح " الذي يصطاف في النار عندما شهد " إبليس " ومقامع الحديد تطرق عظامه، أجرى " المعريٌّ " الشماتة والتشفي منه على لسان " ابن القارح " فيجيبه إبليس "فيقول:" – أي إبليس – من الرجل؟ فيقول: أنا فلان ابن فلانٍ من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب، أتقرَّب به إلى الملوك. فيقول: بئس الصَّناعة؟ إنَّها تهب غفَّةً من العيش، لا يتَّسع بها العيال، وإنَّها لمزلَّةٌ بالقدم، وكم أهلكت مثلك! فهنيئاً لك إذ نجوت"[1]. يتهكم " إبليس " من سائله مذكراً إياه بالأيام التي كان يوسوس له فيها، فيدفعه لقول الأشعار المشينة، وطالما أن هذا حال الرجل القادم من حلب فإنه لا يحق له أن يتشفى بإبليس وهو يتلظى في النار !!. ويكمل المعريٌّ بناء مفارقاته ليوضح لنا حال من أغواه إبليس في الدنيا، فيذكر بشار بن برد صاحب المقولة الشهيرة التي يفضل فيها النار على الطين وإبليس على آدم، فيبدأ إبليس بمدح بشار والثناء عليه، ثم يمهّد المعريٌّ للمشهد التصويريّ التالي بدخول بشار بن برد إلى المحادثة واصفًا إياه بأبشع الصفات، فيعطيه عينين واسعتين – وهو الأعمى في الدنيا – تفتحهما كلاليب من نارٍ ،كي يرى صنوف العذاب التي يقاسيها بسبب عقيدته الفاسدة، وهنا صُلْبُ المفارقة القائمة على التهكم من حال الشاعر بشار، يكتب المعريٌّ في الرسالة على لسان إبليس الذي يمتدح بشارًا يقول :" لقد قال الحقَّ، ولم يزل قائله من الممقوتين". وتأتي الصاعقة بشكل مباشرٍ ومفاجئ تلقى في وجه إبليس الذي كان يمتدح رجلًا انظروا ما حاله، يقول المعريٌّ: "فلا يسكت (أي إبليس) من كلامه، إلاَّ ورجلٌ في أصناف العذاب يغمِّض عينيه حتى لا

---

١ أبو العلاء المعري، (٣٦٣ـ٤٤٩ هـ)، رسالة الغفران، تحقيق: د.عائشة عبد الرحمن، ط ٩، دار المعارف، ١٩٧٧م ،ص٣٠٩. وابن القارح الأديب الحلبي علي بن منصور، وله رسالة عنوانها في تقبل الشرع وذم من ترك الوقوف عنده.

ينظر إلى ما نزل به من النِّقم، فيفتحها الزَّبانية بكلاليب من نارٍ، وإذا هو بشَّار بن بردٍ قد أعطي عينين بعد الكمه، لينظر إلى ما نزل به من النَّكال"[1]. وإن انتقال المعري من آخر كلمة قالها إبليس وهي وصف بشار أنه من أهل الحق إلى وصف حال بشار المسكين جدًّا في النار فيه تهكم مقذع، لفساد مقولة إبليس وسخرية المعريّ من كلامه الذي امتدح به بشارًا، في حين أنَّ بشارًا يعيش هذه الحالة التعيسة، فأي حق هذا إذاً !!. يقول المعريُّ: "فيقول له– أعلى الله درجته – يا أبا معاذٍ " لاحظ أنَّ الدعاء بعلو الدرجة والرفعة في النار وعلو المنزلة لهو من أشد الأمور التي تزعج من ندعوله، كيف لا، ونحن ندعوله بعلو منزلته وانغماسه أكثر في النار ؟!

ثم يتحول المعريُّ في السطر التالي إلى نوعٍ تصويريّ آخر من التهكم يبنى على التّراخي في الحديث، والإطناب في حضرة رجلٍ تنهشه النار، والمعريُّ يذكره بعيوبه، ثم يرحل معه إلى أبياتٍ شعريَّةٍ قالها بشار و يستنطق بشارًا في اللغة مستفتيًا إياه في أمورٍ لغويَّةٍ دنيويَّةٍ لم تعدْ تعني بشارًا المحروق في النار، فنرى المعريّ على لسان ابن القارح يخطّىء بشارًا في انتقائه لألفاظه ومعانيه الفاسدة، وتناقضه في اليأس تارةً، وفي الحكمة أُخرى، وبالتشبيب بالأعراض ثالثة، وينبغي أن نلتمس المفارقة والسّخرية في هذا المشهد من رجلٍ يسردُ وجوه اللغة وتصانيفها أمام رجلٍ يعاني ما يعانيه من ألوان العذاب، فيصرخ فيه بشار أخيرًا "يا هذا، دعني من أباطيلك فإني لمشغولٌ عنك " فيلاحظ أنَّ بشارًا وصف شعره الذي كان يحدثه عنه ابن القارح بالأباطيل، وكان في الدنيا يرى أن جهنم هي الأباطيل، فالآن تظهر الصّورة تحت وقع العذاب، والحالة النَّفْسيَّة التي يعانيها.

١المصدر السابق ،ص٣١٠ .

يقول المعريُّ: "يا أبا معاذٍ، لقد أحسنت في مقالك، وأسأت في معتقدك، ولقد كنت في الدّار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحّم عليك"[1]. يقول حول نقاشه اللغوي وقولك:

واهاً لأسمـاء ابنة الأشــدِّ .. قــامت تراءى إذ رأتني وحدي

الآن وقع منك اليأس! وقلت في هذه القصيدة "السُّبد" في بعض قوافيها، فإن كنت أردت جمع سُبدٍ، وهو طائرٌ، فإن فعلًا لا يجمع على ذلك؛ وإن كنت سكنت الباء فقد أسأت، "!!! [2].

التهكم الاجتماعي: غنيٌّ عن البيان، فالتهكم الاجتماعي محتاجٌ إلى بصيرة بأحوال المجتمع، ودراية بالمجتمعات الأخرى، وملاحظة دقيقة لِما فيه من عيوب، وخيال مسعف للموازنة بين الواقع وما يجب أن يكون، وللمقارنة بين العيب والسلامة، والمرض والصحة، والتصلب والمرونة، ثم هو محتاجٌ إلى القدرة البيانيَّة المواتية للسّخرية من العيب، سخرية مضحكة، وهذا النوع يشبه الهجاء بعض الشبه، لكنه يخالفه أكثر ممّا يشبه، لأن الهجاء صدى للحَنَق والتذمر، لكنَّ التهكم صدى للنقد، ولأن هدف الهجاء الهدم والتجريح ولا شيء غيرهما، ولكن هدف التهكم الإصلاح والإكمال، وليس من ورائهما هدف آخر.

والتهكم الاجتماعيُّ يحقق فائدتين: أولاهما: أن المجتمع قلما بَرِئ من عيوب يضيق بها كثير من الناس، والأدباء لا يستطيعون أن يحبسوا ضيقهم بين جوانحهم، ولا يستطيعون في الوقت نفسه أن يقاوموا هذه العيوب مقاومة مادية، لنفوذ أصحابها، أو لغرض آخر، وفي هذه الحالة لا مندوحة للساخطين من أن يسروا عن أنفسهم بالفكاهة

---

١ المعري، رسالة الغفران، (م. س)، ص٣١٠.

٢ المصدر نفسه، ص٣١١.

والتهكم والضحك. وثانيتهما: أنَّ العيوب الاجتماعيَّة نوعٌ من التصلب والجمود والتخلف عن مجاراة المجتمع ومسايرة المثل الأعلى، ولا سبيل أجدى من الفكاهة والتهكم في تقويم اعوجاجهم، وحملهم على المرونة في نفسيتهم وأخلاقهم وأعمالهم[1]. وعندما ينتقل ابن القارح إلى عنترة يفاجأ بوجوده في النار، فيبادره بسؤالٍ تهكمي فيه الكثير من السخرية قائلاً : أتدخل النار وأنت الذي وصفت جرأتك التي كنت تشرب بها الخمر في الدنيا بأجمل وصف ؟ فتلاحظ هذا الاستفهام التهكمي والانكاري اللاذع لعنترة، وطالما أن هذه حاله فأين تريده إذاً يا أبا العلاء". وينظر فإذا عنترة العبسيُّ متلدِّدٌ في السَّعير، فيقول: مالك يا أخا عبسٍ؟ كأنَّك لم تنطق بقولك :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر، بالمشوف المعلم

بزجاجةٍ صفراء ذات أسرَّةٍ قرنت بأزهر في الشَّمال مفدَّم [2]

ثم يعرض المعريُّ موكبًا من الشعراء يسألهم عما نُسِبَ إليهم من شعر، فينكرون ويتهمون رواته، ويسخر من طريقة بعض الرواة في الرواية لنصوصِ الشعر، وحين يذكر بطله (ابن القارح) بيتين من الشعر للبكري.. يهتف هاتف قائلًا: "أتشعر أيها العبد المغفور له؟ لمن هذا الشعر؟ فيقول الشيخ: نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم يتوارثون ذلك كابرًا عن كابرٍ حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء فيرويه لهم عن أشياخ العرب.. عن وعن أنّ هذا الشعر لميمون بن قيس.. ويلتفت ابن القارح إلى أعشى قيس فيقول له: يا أبا بصير أنشدنا قولك: أمن قتلة بالأنقاء دار غير محلوله ..،فيقول أعشى

---

١ ينظر: الحوفي، أحمد، الفكاهة أصولها وأنواعها في الأدب، نهضة مصر، ٢٠٠١م، ص٢٣٣، فما بعد .

٢ أبو العلاء، رسالة الغفران، (م . س)، ص٣٢٣ .

قيس ما هذا مما صدر مني وإنك منذ اليوم لمولَعٌ بالمنحولات!!. هذا التهكم وهذه السخرية من الرواة واللغويين، تحمل في طياتها تهكماً خفياً من شخصية ابن القارح الذي ظهر عالمًا بالأشعار والنحو والبلاغة، مدليًا بدلوه في كل مسألة تواجهه، وكأنه أصبح العالم الجليل والعبقري الفذّ في شخصية ابن القارح التي دخلت الجنة لعظيم فضلها وقوة علمها في الدار الدنيا، فأخذت تصول وتجول في رحاب الجنة ورحاب جهنم تسأل تارة، و تفسر وتعلق وتسدي نصحاً تارة أخرى. ويتوجه –وعلى المنوال نفسه– ابن القارح بالسؤال لعمرو بن كلثوم، ويبدأ سخريته منه بتذكيره بمطلع معلقته التي ابتدأها بالخمر وذكرها، ولكن الشاعر المسكين يتألم من لظاه فيجيبه بحنق وندامة على ما فات منه من لهو في الدنيا [1]. ويكمل ابن القارح نزهته في رحاب جهنم، فيلتقي بعلقمة الفَحْل فيستنطقه مذكرًا إياه بأبياته التي قالها في الدنيا في وصف النساء فيقول:

" فإن تسألوني بالنسِّاء فإنني بصيرٌ بأدواء النِّساء طبيبُ

إذا شاب رأس المرء، أو قلّ ماله فليس له في ودِّهنَّ نصيبُ

يردن ثراء المال حيث علمنه و شرخ الشّباب عندهنَّ عجيبُ[2]

فالمعريُّ ترك هذا الشاعر في النار؛ لأنه لم يجد في شعره معاني دينية تنبئ عن إيمانه وتوحيده، لكنَّه لما وجد فيه من الحكمة وجمال التعبير ما وجد، كاد يمنحه مغفرة

---

١ المعري، رسالة الغفران، (م. س)، ص ٣٣٠.

٢ المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

وشفاعة ليدخل الجنة مع الداخلين، وكأنَّه يلمّح إلى أن من أصحاب النار مَنْ حقه دخول الجنة، وأن من أصحاب الجنة من حقه دخول النار. وهكذا قال بلسان أوْس بن حجر: »ولقد دخل الجنة من هو شر مني، ولكن المغفرة أرزاق، كأنها النَّشب في الدار العاجلة«[1]. ثم يعرض بعد ذلك لعنترة ويعاتبه ويخطئه في بداية معلقته هل غادر الشعراء، ويقول له لو أنك رأيت شعراء الإسلام لرأيت الشيء الكثير منهم من الأشعار. يقول أبو العلاء على لسان ابن القارح "، ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النّبي– صلّى اللهُ عليه وسلّم– لعتبت نفسك على ما قلت، وعلمت أنّ الأمر كما قال حبيب بن أوسٍ:

فلو كان يفنى الشّعر أفناه ما قرّت حياضك منه في العصور الذّواهب

ولكنّه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه، أعقبت بسحائب [2]

ويقرّرُ أبو العلاء عدة آراء له في اللغة وفي القريض، ويمارس سلطته ككاتب على شخصياته المتفحّمة في الحريق، وقد يفرض سلطته أيضًا على المتلقي الذي ربّما مال لبعض آرائه في غَمْرَةِ إعجابه بطريقته في سرد الشّخوص المتحركة ونسجها!!. وفي استطراده الذي كان يُعطّل سير القصّة الرّئيسيّة، ويُهمّش البطل ابن القارح، ويُدخل المسرود له في مواضيع فرعيَّة، فيطرح من خلالها مجموعة من القضايا التي تشغل المعريّ، وتثير أبناء عصره، إذ ينصرف المعريُّ عن سرد القصّة الرّئيسيّة المتعلّقة بابن القارح إلى سرد قصّة شخصيَّة فرعيَّة، وتكون هذه القصّة عرضيَّة، ويمكن حذفها دون

---

١ المعري، رسالة الغفران، (م . س)، ص ٣٤١ .

٢ المصدر نفسه، ص ٣١٤ .

أنْ تختلّ بنية الرّسالة، ويروح المعريُّ يفسّر الألفاظ المستعصية، ويُكثر من الشّروح اللّغويَّة، ويُقدّم للكلمة مختلف المرادفات حسب اختلاف اللّهجات. ويعمد إلى الإكثار من الاستشهاد بالشّعر ممَّا يحوّل الرّسالة من النّثر إلى الشّعر... ـ ويتحوّل الخطاب في الرسالة من السّرد إلى الحوار، ومن القصّ إلى النّقد، وتُطرح القضايا الأدبيَّة مثل الاختلاف في بعض المسائل الشّعريَّة، والقضايا اللّغويَّة، والعروضيَّة والبلاغيَّة. وكذلك في استطراده الدّينيّ حين ينصرف إلى تناول بعض المسائل الدّينيَّة، أو حين يستشهد بالآيات القرآنيَّة ثمّ يُفسّر بعض الكلمات والمعاني!! وهو يهدف إلى إبراز براعته في إنشاء عالم قصصيّ متخيَّل، وإلى تقزيم معارف ابن القارح، والسّخرية منه، وجعله في منزلة الجاهل المحتاج إلى التّعلّم منه، والتّلاعب به والسّخرية منه برسمه في مشاهد مهينة، وتلقينه المعارف التي يجهلها ويدّعي امتلاكها، وإطماعه بالقدرة على الدّخول إلى الجنّة أحيانًا، وتخويفه من المصير، وتعسيره أحيانًا أُخرى، وكشف تزييف توبته، وإبطال إيمانه، وفضح شهوانيّته، وتحقيق التّرفيه والاستمتاع والضّحك وإخراج نفسه من الجوّ القاتم لتلك العزلة التي فرضها على نفسه، ومن صور التهكم الاجتماعي أيضًا التهكم بعادات مجتمعية بالية تنمُّ عن جهل وسذاجة، وتفكير ساد قديمًا، يقول في رسالته على لسان بطله الفذ ابن القارح "وقد كانوا في الجاهليَّة يعكسون ناقة الميت على قبره، ويزعمون أنَّه إذا نهض لحشره وجدها قد بعثت له فيركبها، فليته لا ينهض بثقله منكبها. وهيهات! بل حشروا عراةً حفاةً بهمًا أي غرلًا، وتلك البليَّة ذكرت في قولك – الحارث بن حلزة – :

تلهَّى بها الهواجر إذ كـ .. لُّ ابن همٍّ بليَّةٌ عمياء"[1]

---

١ المعري ،رسالة الغفران ،المصدر نفسه ،ص ٣١٣– ٣١٤ .

ثانـياً: التعـريض : التعـريض : "عـرّض لفـلان و بـه، إذا قـال فيـه قـولا وهـو يعيبـه "[1]. "والتعـريض هـو اللفـظ الـدال علـى شـيء مـن طريـق المفهـوم لا بالوضـع الحقيقـي ولا المجازي. والتعريض : تعريضا يفهم من عُرضه: أي من جانبه، وعرض كل شيء جانبه، والتعريض يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة، والدليل على ذلك أنه لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وإنما يفهم من جهة التلويح والإشارة "[2]. والتعريض أو التشهير، سلاحٌ ضد المستهدف بالسخرية، يستخدمه الكاتب ليمرر بعض الآراء التي يراها هو، إذ ليس من الضروري أنْ يرى كل الناس ما يراه الكاتب، ثم يوافقه في قناعاته، وخاصة في باب ذكر العيوب التي يتصف بها المجتمع، ويمارسها. يتضح أن تشكيل النص من هذه الزاوية يحتاج إلى مقدرة في استخدام العبارات وتنميقها، للخروج من التهجم والكلام اللاذع المباشر في حق المستهدف بالسخرية إلى كشف مساوئها بطريقة فنية عن طريق المفارقة في الألفاظ وطلب المعنى البعيد من الكلام، فتأخذ من الكناية، وتأخذ من علم النحو من خلال التقديم والتأخير والحذف"[3]، ولو أن صانع التعريض لا يمتلك القدرة الفنية والبلاغيَّة لأصبح في نظر قارئه أكثر سلبيَّة وقبحًا من ضحيته !!. ولأجل ألا يظهر بذلك ينمّق ويحبّر، ثم يدسّ السّم في الدّسم بطريقة فكاهيَّة جميلة تزيد من سخط قارئه على تلك المستهدف بالسخرية، وكأن صاحب التعريض يجنّد معه القراء لأجل النّيل من ضحيته، وقد أوضح الدكتور

---

١ ابن منظور، جمال الدين الأنصاري محمد بن مكرم بن على (٧١١ هـ)، (٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٩٧٦م ، مادة (عَرَضَ) ٤/ ٢٨٩٥ .

٢ ابن الأثير(٦٣٠ هـ) ،المثل السائر ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الحلبي، ١٩٣٩، ج٢ص١٩٨.

٣ الطرودي، أحمد مصفى الطرودي التونسي، (١١٦٧هـ)، جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، تحقيق محمد رمضان الجربي، بدون تاريخ، ج٢/ ٥١٣ .

حسين خريوش ما للتعريضِ من أهمية في تضخيم المنظر وتقبيحه، وما يحمله من مرارة وفكاهة تستخدم كأداةٍ قتالية لمواجهة أيَّة عيوب اجتماعية، وظيفتها النقد الاجتماعي، ومحاولة إصلاحه بصيحات موجعة، فيعلق على التعريض: "هذا النوع الساخر يتغلغل إلى الأذهان وإثباته في هذا الأسلوب (التعريض) يكاد يبلغ من إلزام الحجة والتبكيت، ذلك أن دقة النّقد الاجتماعيّ في الضّحك على تضخيم القبح فتذهب به حدّ التّشوه لتثير الضحك "[1] وفي سرد المحادثة التي دارت بين ابن القارح وإبليس نرى أن إبليس يعرّض بابن القارح واصفًا إياه أنه يشتغل بالأدب ويتملق الخلفاء :" فيقول: بئس الصَّناعة؟ إنَّها تهب غفَّةً من العيش، لا يتَّسع بها العيال، وإنَّها لمزلَّةٌ بالقدم وكم أهلكت مثلك! فهنيأً لك إذ نجوت"[2] وفي ردّ ابن القارح على إبليس تعريض بإبليس ووصفٌ لحالته المشينة في الدنيا والآخرة "فيقول: عليك البهلة؟! أما شغلك ما أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى: "ولهم فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ وهم فيها خالدون "؟[3].

ويظهر إبليس في هذا المشهد مدحورًا و مدحوضًا بالحجج. واختيار كلمة " البهلة " لم يأتِ عبثًا، فكما نعرف أن الابتهال يكون بدعاء الرجل على نفسه بالسوء والهلاك – قبل بدء المناظرة – إنْ لمْ يأتِ بدليلٍ على صدق ما يقول ويدعي. ويذكر ابن القارح إبليس بضرورة الاشتغال بسقر ولظاها، وأنَّ كلامه مردودٌ عليه، وهذا تعريض به أنَّه من أهل النار. وفي سؤاله عن عمرو بن كلثوم وتقريعه له والتعريض به ،لأنه كان في الدنيا يتغزّل ويذكر الخمر كثيرًا "فيقول: أعزز عليَّ بأنَّك قصرت على شرب حميم، وأخذت بعملك الذّميم، من بعد ما كانت تصب لك القهوة من خُصٍ أو غير خصّ، تقابلك بلون الحصّ."[1]

---

١ ينظر: خريوش، حسين، أدب الفكاهة الأندلسي، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٢م .

٢ أبو العلاء، رسالة الغفران، (م . س)، ص٣٠٩ .

٣ المصدر السابق، ص٣٠٩ .

الحصّ."[1] يصف له حاله وهو في الدنيا كيف كان يشرب الخمر، وهو لاهٍ غافلٌ ويفعل أفعالًا ذميمة، أمّا الآن فهو في السعير. ويترك المعريُّ لنا المقارنة بين الحالين بعد أن عرّض بعمرو وشهّر به وفضحه.

ثالثًا: الكناية: من كنَّى، والكنية على ثلاثة أوجه: أولها: أن يكنى عن الشيء الذي يستفحش ذكره وثانيها: أن يكنى الرجل باسم محدد توقيرًا وتعظيمًا. وثالثها: أن تقوم الكنية مقام الاسم، فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه[2]. وقد قسم السكاكي الكناية إلى أنواع : " تتفاوت إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة "[3] وفي دلائل الإعجاز للجرجاني الكناية" المراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه، مثاله : قولهم هو طويل النجاد يريدون طويل القامة، وكثير رماد القدر : يعني كثير القرى "[4]. وقد ورد في رسالة الغفران الكثير من صور الكناية لأغراض معنويَّة، للزّيادة في تأصيل المعنى، والتعبير عنه سواء أكان بصيغته السلبيَّة أو الإيجابيَّة، متخذًا أشكالًا عدة في السّخرية من ابن القارح، مثل: "فكأني أحرك ثبيراً وألتمس من الغضرم عبيراً". وهذا كناية عن عدم الاستجابة والذل، وعندما

---

١ المعري، رسالة الغفران، (م. س)، ص٣٠٩.

٢ لسان العرب، مادة (كنَى)، ٥ /٣٩٤٤.

٣ السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (٧٢٦ هـ)، مفتاح العلوم، تعليق: نعيم زوزو، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٩٨٧م، ص٤٠٣.

٤ عبد القاهر الجرجاني، عبد القاهر(٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠،ص٦٦. وينظر: أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)،الحسن ين عبدالله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي بن محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧١م،ص٣٤٦.

تملّق ابن القارح رضوانًا وزفرا من أجل أن يشفعا له للدخول في دخول الجنة. وقوله "فطال علي الأمد "[1]: كناية عن طول الانتظار مع التّعب والنّصب. وقوله: " كالنُّفا في العام الأرمل " [2] كناية عن قلة الحظ وسوء المصير، والنفا: معناها الرياض. والعام الأرمل كناية عن قلة الأمطار. كقول المعري :" إلا أن التوبة في آخرها كأنها مصباح أبيلٍ، رفع لسالك السبيل "[3]: كناية عن قلة رصيد ابن القارح من الحسنات وهو يريد دخول الجنة فبدأ يتكلف ويزلف من أجل المغفرة. ومصباح أبيل " كناية عن إنارة الحسنات لوجه المؤمن كما تنير الأنوار والمصابيح الطريق .كناية عن التفاؤل الضعيف بنجاة ابن القارح من هول المحشر .

رابعًا : **الذم بما يشبه المدح** أورد الخطيب القزويني في كتابه الإيضاح أنواع هذا الضرب من البلاغة:

" أحدهما: أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيها، كقولك فلان لا خير فيه إلا أنه يسيء إلى من يحسن إليه. وثانيهما: أن يثبت للشيء صفة ذم، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له كقولك (فلان فاسق إلا أنه جاهل) "[4]. وورد في هذه الجزئيَّة من صور الذم بما يشبه المدح الآتي: ما قاله إبليس لابن القارح "وكم أهلكت مثلك فهنيئاً لك إذ نجوت "والمفارقة تكمن هنا في مدحه لابن القارح إذ إنه نجا

---

١ أبو العلاء المعري، (٤٤٩هـ) ،رسالة الغفران ،الناشر: مطبعة (أمين هندية) (شارع المهدي بالأوزبكية) – مصر ،صححها و وقف على طبعها: إبراهيم اليازجي ،الطبعة: الأولى ،١٩٠٧م ،ص٧٦ .

٢ المصدر السابق ،ص٨٧ .

٣ المعري، رسالة الغفران، (م .س)، ص٥٤ .

٤ القزويني، الخطيب القزويني (٦٨٢هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة ، ، تحقيق : د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، مصر، ١٩٩٦، ص٤٢٢ .

منه في الدنيا فقد استخدمت كلمة التهنئة في غير محلها من باب المفارقة –وما قاله إبليس عن بشار " لقد قال الحق، ولم يزل قائله من الممقوتين " إذ ذمَّه بطريقة دفينة، بأنه قال الحق في حين أن بشار لم يقل الحق بل قال الباطل.

* * *

المفارقة التركيبيَّة في رسم شخصية ابن القارح مع شخوص شعراء الجنة :

قبل أن يدخل ابن القارح إلى الجنة يقدم أبو العلاء بمقدمة طويلة مستخدمًا فيها الكثير من الألفاظ المسجوعة المنمقة، وقد احتوت على الكثير من التهكم والسخرية من خلال حديث ظاهره مديح ابن القارح والثناء عليه، مُبشرًا إياه أن رسالته قد وصلت إليه وفهم مغزاها، معترفًا بقيمتها العالية والرفيعة، لدرجة أن القارئ يحسبها فصًا من الحكم، وخطبة وعظيَّة توضيحيَّة لأصول الدين. وإن هذه الصورة التي ابتدر بها أبو العلاء ردّه على رسالة ابن القارح، وهذا المديح لها ما هو إلا ذمٌّ بما يشبه المديح. لينتقل بابن القارح فيما بعد ماسكا يديه آخذًا إياه في رحلة عظيمة، ليلتقي شعراء الجنة مُسلّطًا الضوء أثناء هذه الرحلة على عددٍ من الأمور اللغويَّة العظيمة التي تجاذب حولها الفصحاء.

إنَّ ابتدار هذه الرحلة بهذا المديح وتصدير رسالة الغفران به، لأمرٌ لائقٌ وبدهيّ من قبل مبدع هزَّه ما كتبه إليه ابن القارح من سطور في رسالته، وخاصة فيما يتعلق بمحاولة ابن القارح للانتصار للبحتريّ على المتنبيّ، ولكنْ عندما تتأصل الحبكة في وسط الرسالة ويتحول ابن القارح إلى شخصية من شخصيات أبي العلاء التي تعبر عما يريده ولتمرير آرائه. ويتضح أمرٌ مثيرٌ للتساؤل يجعلنا نحطُّ من قيمة ابن القارح ومن قيمة رسالته التي وجهها إليه، وإن من غير المتوقع أنْ يكون الرد المنطقي على رسالة ابن القارح رحلة في الجنة والنار بهدف مناقشة الشعراء في الكلام الذي قالوه وعبر ابن القارح الذي أراد إبراز

خبرته اللغويَّة أمام أبي العلاء في الرسالة التي خطها إليه، هذا أمر لن ينساهُ أبو العلاء وهو يكتب رسالة الغفران، ليحاكم ابن القارح ويثقّفه ويعلّمه فنون البلاغة وفنون تشقيق القول والمنطق ومحاججة أهل اللغة حول آرائهم اللغوية. ويستخدم أبو العلاء سلطة ظاهرة في الرسالة، من خلال بناء الحبكة والتحاور بين الشخصيات وحكمه بالجنة لشعراء أعجبه شعرهم أو أخلاقهم، وآخرون بالنار لشعر قالوه أو لفحش عملوه، وكأنه يبرر اختياراته. بعد هذه المقدمة نستطيع أن نفهم آلية نسج العتبة الأولى لدخول ابن القارح إلى الجنة وتطوافه على مَنْ فيها، وأصبح واضحًا ماذا يريد المعري من استوقاف ابن القارح لمدة أمام باب الجنة كما سنرى. يعقد أبو العلاء في مقدمة رسالته، وأثناء الثناء على رسالة ابن القارح وصفا عجيبًا لخمر الأرض، ثم ينتقل مباشرة ليصف خمر الجنة عاقدًا بذلك مقابلة بين الخمرين، ومسفهًا أحلام من عاقروها في الدنيا وحرموا أنفسهم من معاقرتها في الآخرة، نلاحظ كيف ينسج المعريٌّ خيوط معانيه في هذه المقدمة التي بدأها بوصف خمر الدنيا ووصف الأباريق، ومن ثم أفرد لخمر الجنة وأنهارها من العسل المصفّى بابًا تحدّث عنه.

يقول المعريٌّ على لسان ابن القارح :" نظرةٌ إلى تلك الأباريق، خيرٌ من بيت الكرمة العاجلية، ومن كل ريقٍ، ضمنته هذه الدار الخادعة، التي هي لكلَّ شممٍ جادعةٌ. "[1]. وفي الوصف الحسيّ لخمر الجنة يحاول المعري أن يتهكم من ابن القارح ويتهكم كذلك من عادات الناس والمجتمع المنغمس في الملذات يقول المعري [2]:" ينبع من أفواهها شرابٌ، كأنه من الرَّقَّة سرابٌ، لو جرع جرعةً منه الحكميٌّ لحكم أنّه الفوز القدميٌّ.

---

١ أبو العلاء، رسالة الغفران، (م .س)، ص٨ .

٢ المصدر السابق، ص١١ .

وشـهد لـه كـلٌّ وصَّاف الخمر، من محـدثٍ فـي الـزمن وعتيـق الأمر. وإنّ أصناف الأشـربة المنسوبة إلى الدار الفانية، كخمر عانة وأذرعات، وهي مظنَّةٌ للنُّعّات؛ وغزّة وبيت راس والفلسطية ذوات الأحراس؛ وما جلب من بصرى في الوسوق، تبغى به المرابحة عند سوق، وما ذخره ابن بجرة بوجّ، واعتمد به أوقات الحجّ، قبل أن تحرَّم على الناس القهوات، وتحظر لخوف الله الشهوات.قال أبو ذؤيب:

ولو أنَّ ما عند ابن بجرة عندها ... من الخمر، لم تبلل لهاتي بناطل "

ويتابع أبو العلاء القول:" فأمَّا الأنهار الخمريّة، فتلعب أسماكٌ هي على صور السَّمك بحريَّةٌ ونهريّة، وما يسكن منه في العيون النَّبعية، ويظفر بضروب النَّبت المرّعية، إلاّ أنّه من الذَّهب والفضّة وصنوف الجواهر، المقابلة بالنُّور الباهر. فإذا مدّ المؤمن يده إلى واحدةٍ من ذلك السَّمك، شرب من فيها عذبًا لو وقعت الجرعة منه في البحر الذي لا يستطيع ماءه الشارب، لحلت منه أسافل وغوارب؛ ولصار الصمَّر كأنَّه رائحة خزامى سهلٍ، طلَّته الدَّاجنة بدهل، والدَّهل: الطائفة من اللَّيل، أو نشر مدامٍ خوَّارةٍ، سيَّارةٍ في القلل سوَّارة."[1]

* * *

١ المعري، رسالة الغفران، (م . س)، ص١١.

السّخرية من ابن القارح ومفارقة المقام للمقال:

ذكرتُ أن الرسالة من بدايتها حتى نهايتها نَسْجٌ من السخرية، وضربٌ من التقريع، في حق ابن القارح، الذي تجرأ وأرسل إلى المعري يخبره أنَّ البحتريّ أشعرُ من المتنبيّ، وهذا رأي لم يكن يروق لأبي العلاء... وقد ظهرت السّخرية والتهكم في أكثر من موضع، فكثيرًا ما يلجأ المعريُّ إلى وضع جمل اعتراضية داخل السرد وأغلبها من باب السخرية بابن القارح وتصغيرًا لثقافته والحط من قدره العلمي، فمثلًا يقول المعري: "وكأنّي به– أدام الله الجمّال ببقائه– إذ استحقَّ تلك الرُّتبة، بيقين التوبة...."فهذه سخرية واضحة من باب إيضاح جهل ابن القارح. وكذلك قول المعري ساخرًا بطريقة الجمل الاعتراضيَّة الدّالة على الدعاء: "والملائكة يدخلون عليهم من كل بابٍ، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار. وهو– أيَّد الله العلم بحياته– ..."[1] ومن ذلك أيضا: "فيقول الشيخ– حسّن الله الأيّام بطول عمره– :آه لمصرع الأعشى ميمون وكم أعمل من مطيَّةٍ أمون"[2]. ومنه أيضًا:" فيهتف هاتفٌ: أتشعرُ أيّها العبد المغفور له لمن هذا الشَّعر؟ فيقول الشيخ: نعم".[3] ومنه أيضًا: " وهو– أكمل الله زينة المحافل بحضوره– يعرف الأقوال في هذا البيت "[4]، ومن السخرية بابن القارح أيضا:" فيقول–زاد الله في أنفاسه–:أين هذه الباطية من التي ذكرها السّرويُّ" [5]. ومنه أيضا " فإذا سمع الشَّيخ–ثبّت الله وطأته– ما

---

١ المصدر السابق، ص١٨.

٢ المصدر السابق، ص١٩.

٣ المصدر السابق، ص٦٤.

٤ المصدر السابق، ص١٩.

٥ المصدر السابق، ص١٩.

قال ذانك الرّجلان، طمع في سلامة كثير من أصناف الشعراء."[1] وهذه الجمل الدعائيَّة التي أردفها في سياق مديحه لابن القارح تحمل في طياتها سخرية لاذعة وتهكمًا مرًّا بهذه الشخصية فكان المدح ذماً. ولم تقف قضية التهكم من ابن القارح أن تكون في ثنايا الجمل الدعائية، بل أبدعَ المعريُّ في الانتقاص من هذه الشخصيَّة في عدة مواقف مرَّ بها ابن القارح في أثناء تجواله في رحاب رياض الجنان، فكان يلتقي بالشعراء في مواقف متنوعة تدعونا إلى الضّحك من روعة النّسيج الفنيّ، وفكاهة المنطق والكلمات التي كان المعريُّ يجريها على لسان ابن القارح، ومن هذه المواقف التي صادفناها في رحاب جنة الغفران موقف جمع بين ابن القارح وعدي بن زيد، وذلك في مشهد الصيد والقنص الذي دعاه ابن زيد إليه فظهر ابن القارح مرتبكًا. فها هو ابن القارح يخشى من السقوط على صخور من زمرد في مشهد القنص فيقول المعريُّ متهكمًا منه معرضًا بقدراته الضعيفة وعدم حنكته في أمور الصيد "ويجوز أن يقذفني السابح على صخور زمرد فيكسر لي عضدًا أو ساقًا، فأصير ضحكة في أهل الجنان. فيبتسم عدي ويقول: ويحك! أما علمت أن الجنة لا يرهب لديها السقم، تنزل بسكنها النقم؟"[2] فعدم حنكته في مجال الصيد والقنص ظهرت في أنه -ابن القارح -كلما أراد أن يطلق سهمه أوقفته جملة: " أمسك- رحمك الله -" فينصرف عن مبتغاه لأمر آخر. وفي موقف آخر يستهزئ منه، وذلك في موقف المنادمة بين أبي البصير والنابغتين وعدي، فيظهر ابن القارح قدراته في حفظ الشعر وأسماء الرواة والنُّحاة، فما هذه المقدرة العجيبة ولكن هذه المقدرة كانت من نصيب أبي العلاء ووردت على لسان ابن القارح، والغاية من وراء

---

١ المصدر السابق، ص٢٤.

٢ المعري، رسالة الغفران، ص ٢٨.

ذلك كله الهزء والسخرية منه فيقول المعريُّ: " فيقول مولاي الشيخ الأديب المغرم بالعلم ."[1] وأيضاً نلحظ ذلك في قوله: " فيقول أبو بصير :قد طال عمرك يا أبا ليلى، وأحسبك أصابك الفند، فبقيت على فندك إلى اليوم ! أما علمت أن اللواتي يسمين بالرباب أكثر من أن يحصين؟ "[2]وهذا الذكر المتعدد للربابات على لسان ابن القارح فيه تهكم ونقد لاذع لابن القارح، فأجرى الكلام على لسانه مجرى العارف والعالم ولكنه في الحقيقة سخرية وتهكم من ابن القارح نفسه. وفي أثناء تطواف ابن القارح في جنان الخلد بعد أن نال صك الغفران بشفاعة رسول الله تهكم المعري من ابن القارح، هذا الشيخ المتملق الذي وقف على باب الجنة متملقًا الملكين الكريمين (رضوان وزفر) بقصائد مدحية طويلة من أجل التشفع له لدخول الجنة، لكنهما لم يفقها من قوله شيئًا، فأعرض عنهما ويمم وجهه شطر أقرباء رسول الله علَّه يحصل على مبتغاه، ونلحظ تملّق الشيخ بقول المعري فيه: " وشغلت بخطابهم والنَّظر في حويرهم، فسقط منّي الكتاب الذي فيه ذكر التَّوبة، فرجعت أطلبه فما وجدته، فأظهرت الوله والجزع، فقال أمير المؤمنين: لا عليك، ألك شاهدٌ بالتَّوبة؟ "[3].

ويقول في موطن مدح زفر ورضوان، عندما أوقفاهُ على باب الجنة فسألاهُ عن ضالته وماذا يريد؟، فيظهر ابن القارح بهذه الهيئة الذليلة أمام الملكين، ولقد قصد المعريُّ أن يكون تضرّع ابن القارح لملكين لا ينفعان ولا يضران، استكمالًا لحلقة النقد اللاذع في حق ابن القارح والذي تقوم الرسالة بمجملها عليه، يظهر المعري راويه ـ ابن القارح ـ في هذه الصورة وهو يشكو العطش والتعب والنصب، ثم يدفع به أن يتملّق للملكين بأشعارٍ

---

١ المصدر السابق ، (م . س)، ص٣٥ .

٢ المصدر السابق، ص ٤٣ .

٣ المعري، رسالة الغفران، (م . س)، ص٥٧ .

قالها في أرض الفتنة، أرض البوار، أرض الدنيا، هذه الأشعار هي مدح لرضوان وزفرا!! يقول أبو العلاء: "ها المسكين؟ فأقول: أنا رجل لا صبر لي على اللواب – أي العطش– وقد استطلت مدة الحساب، ومعي صكّ بالتوبة، وهي للذنّوب كلّها ماحية، وقد مدحتك بأشعارٍ كثيرة ووسمتها باسمك "[1]: وبعد أن يحتج ابن القارح عند الملكين بهذه الأشعار ويجهد نفسه في إلقائها عليهم تأتي المفاجأة...إذ تقصَّد المعري أن يستهزئ بهذه الأشعار التي قالها ابن القارح، من خلال استنكار الملكين لها، إذا كان الملكان وهما المقصودان بالمدح لم يعجبهما ما قيل من شعر، فلا شك أن هذا الشعر لا قيمة له، فمن دواعي حنق الشاعر على نفسه، أن يقول شعرًا في حق ممدوح ثم لا يلاقي منه سوى النفور، يقول المعري على لسان الملكين الذين استنفرا هذه الأبيات المدحية لدرجة أنهما ما فهما معناها ولا فهما معنى كلمة شعر أساسًا: " فقال: وما الأشعار؟ فإني لم أسمع بهذه الكلمة قطّ إلا الساعة. فقلت: الأشعار جمع شعرٍ، والشعر كلامٌ موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحسّ، وكان أهل العاجلة يتقربّون به إلى الملوك والسّادات، فجئت بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدُّخول إلى الجنة في هذا الباب..."[2] تظهر في هذه الصورة السّذاجة والانكسار من ابن القارح، والمفارقة واضحة، إذ كيف يمكن لذي لبٍّ أن يقارن بين مجلس شعر عند ملك أرضي، يمتدحه الشعراء، ويكثرون في المبالغة والكذب، فيصفون الملك بصفات ليست فيه، استدرارًا لماله، وبين الملكين والجنة ؟؟ وهل تُدخل الجنة بأبياتٍ من الشعر يقولها شاعر؟! الفارق كبير بين حال المجلس الدنيوي وأهدافه الفانية وبين جنة عرضها

---

١ المصدر السابق، ص٥٥ .

٢ المعري، رسالة الغفران، المصدر السابق، ص٥٥ .

السموات والأرض، ولا يقارن بين ذلك المجلس وبين حال ابن القارح هذا على باب الجنة إلا شخص ساذج كابن القارح ـ على رأي المعري ـ وعندما لاحظ ابن القارح استنكار الملكين لما يقوله ، بدأ بسرد حاله من ضعف وتعب ونصب، مظهرًا أمام رضوان حارس أحد أبواب الجنة وسائل الضعف والانكسار !! إلا أن رضوانا لا يجيبه ولا يسمح له بالدخول، لأن ذلك ليس من أمره ولا يقدر عليه ....

يقول المعريُّ على لسان ابن القارح : "لعلك تأذن لي بالدُّخول إلى الجنة في هذا الباب. فقد استطلت ما الناس فيه، وأنا ضعيف منين؛ ولا ريب أنّي ممن يرجو المغفرة، وتصحُّ له بمشيئة الله تعالى. فقال: إنك لغبين الرأي! أتأمل أن آذن لك بغير إذن من رب العزة؟ هيهات هيهات! وأنَّى لهم التناوش من مكان بعيد."[1] ونلحظ قَلْبَ المواقف الجادة الى مواقف هزليَّة فإن جوهر هذه الآليَّة المولدة للسخرية والإضحاك قلب المعريِّ للوضعيات المصيريَّة الى وضعيات هزليَّة من خلال اعتماده على مبدأ المفاجأة أي مفاجأة القارئ أو الشخصيَّة بما لا ينتظران. إذ إنه ليخرج الأحداث على غير هيأتها المألوفة، وفي حلية مخالفة لما ينتظره المرء، شأن ما فعل مع ابن القارح يوم الحشر. فهو يوم الحشر من حيث هو يوم رهبة وخوف يتحيل و يضانك الناس ويضيع منه صك التوبة نتيجة انشغاله في نقاش متعلق بالنحو حيث يقول البطل: "وشغلت بخطابهم والنظر في حويرهم (الحوير: العداوة والمضادة)، فسقط مني الكتاب الذي فيه ذكر التوبة فرجعت أطلبه فما وجدته، فأظهرت الوله والجزع"[2]، إذ كان إظهار الطيش والحمق والعجلة في التصرف والبلادة هي مبتغى المعري من توظيف تلك الصور، وإبراز المفارقة الشديدة بين ما يتظاهر به ابن قارح من زهد وأدب وواقعه الفعلي، فيصور المعري سلوك ابن القارح ونهمه، ونتج

---

١ المصدر السابق، ص٥٥ .

٢ المعري، رسالة الغفران،المصدر السابق، ص٩٠.

عن هذا التصوير والتضاد معنى الاستهزاء والسخرية وفضح سلوكياته التي تفتقد إلى اللباقة وإلى ذلك يصوره المعري عابرًا الصراط على ظهر جارية على شكل "زقفونة" نتيجة عدم استمساكه: يقول البطل عن الجارية التي حملته "فتحملني وتجوز كالبرق الخاطف" [1]. وفي هذا الموقف– يوم الحشر – ينشغل بعضهم بالنقاش في مسائل أدبية متهمين النحويين بالتجني، فأي اختلاف بين يوم الحشر الذي فقد هيبته ويوم السوق؟ ألا يؤكد هذا التشابه الضمني بين اليومين أن المعري اشتق هذه الصورة الهزلية من الواقع المعيش؟ مفارقة المقال والمقام، وإن هذه الآلية في الإضحاك تنبثق من المفارقة بين المقام ونوعية المقال حيث يجتمع أمران متناقضان في مشهد واحد، فيعمد المعريُّ الساخر الى قلب مبدأ مناسبة المقال للمقام إلى مخالفة المقال للمقام. من ذلك مثلًا أن ابن القارح يسأل أهل النار رغم عذابهم عن قضايا في الشعر والأدب حيث يقول محددًا هدفه من الإشراف على أهل النار" فاذا رأى قلة الفوائد لديهم تركهم في الشّقاء السرمد وعمد إلى محله في الجنان"[2] وبعدُ إنَّ هذا التناقض بين المقام والمقال وإن ولّد الإضحاك فإن المعريَّ قصد به نقد تصورات الناس الذين يعتقدون أن مشاغلهم في الدنيا هي المشاغل نفسها في الآخرة، ومن جهة أخرى قصد بهذه السخرية من ابن القارح. ويصور لنا المعريُّ كيف انتقل ابن القارح من رضوان إلى خازن آخر وهو زفر، فيظهر ابن القارح لصًّا منافقًا، أخذ بيتًا من شعر لبيد ونسج على منواله، وغيَّر فيه، كي يتناسب مع امتداح خازن الجنة، لكنَّه لم يستجبْ له، فأخذ ابن القارح يبحث في أشعار العرب، وينسج على وزنها ويقولها في امتداح زفر، ولكن خازن النار لا يستجيب لهذا المديح يقول المعريُّ فيه: "فتركته وانصرفت بأملي إلى خازن آخر يقال له زفر، فعملت كلمةً ووسمتها باسمه في وزن قول لبيد:

---

١ المصدر السابق، ص٩٩.

٢ المصدر السابق، ص١٦٩.

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما .... وهل أنا إلاّ من ربيعة أو مضر

وقربت منه فأنشدتها، فكأني إنّما أخاطب ركوداً صمّاء، لأستنزل أبوداً عصماء. ولم أترك ْ وزنًا مقيّدًا ولا مطلقًا يجوز أن يوسم بزفر إلا وسمته به، فما نجع ولا غيَّر."[1] ويهيم ابن القارح على وجهه يبحث عن وسيلةٍ ناجعةٍ تدخله الجنة بعد أن فشلت أشعاره لضعفها ولو كانت قوية السبك، رزينة المعنى، حلوة الطلة، لسحر بها الملكين وأدخلاه الجنة[2]، كما فعل المعري في (إدخاله) الجنة لشخصيات أخرى في الرسالة لمجرد قولهم بيتًا واحدًا من الشعر في الغزل أو الحكمة، ولكن ابن القارح ،ولأنه أديبٌ غير مطبوع فشلت أشعاره أن تستميل عطف الملكين، فأظهره المعريُّ شيخًا متصابيًا يرشف رضاب الجواري متنقلًا من واحدة إلى أُخرى متناسيًا أنه في مكان مقدّس وفعله هذا لا يليق بجلالة المكان وقدسيته، فالمفارقة هنا ظهرت في التهكم من ابن القارح ومن مفارقة المقام للمقال، وهذا نجده أيضاً في تهكمٍ صريح من ابن القارح، تهكم من ضعف عقيدته وتظاهره بالورع، فهو شيخ متصابٍ في أثناء السجود يرفع رأسه ليختلس النظرات ويمتع نظره بجسد جارية حسناء مرت أمامه، يقول المعريُّ :"ويخطر في نفسه، وهو ساجد، أن تلك الجارية، على حسنها، ضاوية فيرفع رأسه من السجود و قد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان عالج وأنقاء الدهناء " [3].

إنَّ النّسيج القصصي لرّسالة الغفران في أغلبه قائمٌ على السخرية والتهكم، ليس من ابن القارح وحده، بل مِنْ كل مَنْ مرّ اسمه في ثنايا هذه الرسالة، فكان التهكم بالعيوب الخَلقية ظاهرًا موزعًا في طيّات الرسالة بين الرجال والنساء، وهنا تظهر

---

١ المعري، رسالة الغفران ،المصدر السابق، ص٥٥

٢ بن رمضان، فرج، القص، التخيل، السخرية في رسالة الغفران، سلسلة دراسات في اللغة والأدب والحضارة، عدد٢، منشورات دار البيروني للنشر، صفاقس، ط ١، مارس ١٩٩٦م، ص ١٣،ص ٢١٧ .

٣ المعري، رسالة الغفران، (م . س)، ص٧٤

المفارقة، فكلٌ أعطي صفات نافت طبيعته التي عُرف بها، فالأعشى أصبح أحور والهرم شابًا والسوداء كافورًا وهكذا...فيقول المعريُّ: "هذا الشّعر لميمون بن قيس ابن جندلٍ أخي بني ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن عليّ بن بكر بن وائلٍ فيقول الهاتف: أنا ذلك الرَّجل، من اللّه عليَّ بعدما صرت من جهنّم على شفير، ويئست من المغفرة والتّكفير. فيلتفت إليه الشيخ هشًا بشًا مرتاحًا، فإذا هو بشابٍّ غرانق غبر في النّعيم المفانق، وقد صار عشاه حورا معروفًا، وانحناء ظهره قوامًا موصوفًا "[1]، وزهير يعود شابًا و كأنه لم ييأسْ من الهرم يومًا ولم يتأففْ ولم يضجرْ يقول أبو العلاء:" فيبتدئ بزهير فيجده شابًا كالزَّهرة الجنيَّة، قد وُهِبَ له قصرٌ من ونيَّة، كأنّه ما لبس جلباب هرمٍ، ولا تأفَّف من البرم "[2] وعوران قيس الخمسة أبدلوا حسنًا وجمالًا وعيونًا من أجمل ما تكون، لم يرَ ابن القارح مثلها في أهل الجنان فيقول المعريُّ: "فبينا هو يطوف في رياض الجنَّة، لقيه خمسة نفرٍ على خمس أينق، فيقول: ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان! فمن أنتم خلد عليكم النّعيم؟ فيقولون: نحن عوران قيسٍ: تميم بن مقبلٍ العجلانيّ وعمرو بن أحمر الباهليُّ والشَّمّاخ، معقل بن ضرار، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، وراعي الإبل، عبيد بن الحصين النُّميريّ، وحميد ابن ثور الهلاليّ "[3].

* * *

١ المعري، رسالة الغفران، المصدر السابق، ص٢٠.

٢ المصدر السابق، ص٢٢.

٣ المصدر السابق، ص٤٨.

خاتمة :

لا يعنينا هنا أن نحاكم المعري على ما كتب في رسالته، بقدر ما يعنينا الطريقة الذكيَّة المبتكرة في نسج الأحداث، وكأنَّك على رقعة شطرنج، تتحرك فيها القِطَعُ حسب رغبة اللاعب، والتهكم والسّخرية والتعريض، والاستهزاء، والدهاء الفنيُّ واضحٌ في الرسالة شكلًا ومضمونًا، خاصة إذا علمنا أن للمعري سوابق في ذلك، وزاد المعري في محاكاة أفعال الله في هذه الرسالة، يبدو ذلك جليًا في اسمها – الغفران – إذ نصَّب المعريُّ نفسه قاضيًا يحكم على العباد بالجنة والنار!!. وأمَّا من ناحية اللطائف اللغويَّة فهي في هذه الرسالة أكثر مِنْ أن تحصى، وفيها أظهر المعريُّ مقدرته اللغويَّة واستيعابه لعلوم العربيَّة، وخاصة علمي المعجم والعروض... وبدت الرسالة نسجا من السخرية من أولها وإلى آخرها، أظهرت ابن القارح شيخا يتاجر بدينه، منافقا. وإن إظهار الطيش والحمق والعجلة في التصرف والبلادة هي مبتغى المعري من توظيف تلك الصور، وإبراز المفارقة الشديدة بين ما يتظاهر به ابن قارح من زهد وأدب وواقعه الفعلي، فيصور المعري سلوك ابن القارح ونهمه، ونتج عن هذا التصوير والتضاد معنى الاستهزاء والسخرية وفضح سلوكياته التي تفتقد إلى اللباقة.

* * *

المصادر والمراجع :

- **القرآن الكريم.**

– أبو العلاء المعري (٤٤٩ هـ)، **رسالة الغفران**، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن، الطبعة التاسعة، دار المعارف، ١٩٧٧م. ونسخة الناشر: مطبعة (أمين هندية) (شارع المهدي بالأوزبكية) – مصر، صححها ووقف على طبعها: إبراهيم اليازجي، الطبعة: الأولى، ١٩٠٧م.

– أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)،الحسن ين عبدالله بن سهل العسكري، **كتاب الصناعتين**، تحقيق علي بن محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧١م.

– ابن الأثير، ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٠ هـ)، **المثل السائر**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الحلبي، ١٩٣٩م.

– ابن منظور، محمد بن مكرم بن على (٧١١ هـ)، جمال الدين الأنصاري (٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

– الحوفي، أحمد الحوفي، **الفكاهة أصولها وأنواعها في الأدب**، دار النشر: نهضة مصر، ٢٠٠١م.

– الزركشي:بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٦٥١هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ط، ١٩٨٨م .

– العبد، محمد، **المفارقة القرآنية**، دار الفكر العربي، القاهرة،، ط ٢، ٢٠٠٦م .

– بعلبكي، رمزي منير، **معجم المصطلحات اللغوية**، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م .

–حسني، عبد الجليل يوسف، **المفارقة في شعر عدي بن زياد العبادي**، دراسة تطبيقية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة،م، ص ١٤، ١٩٩٠م

– خريوش، حسين، **أدب الفكاهة الأندلسي**، د.، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٢م .

– راغب، نبيل، **الأدب الساخر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

– الزمخشري، محمود بن عمر(٥٣٨هـ)، **أساس البلاغة**، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥م.

– السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (٦٢٢ هـ)، **مفتاح العلوم**، تعليق: نعيم زوزو، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٩٨٧م .

–سليمان، خالد، **المفارقة والأدب، دراسة في النظرية والتطبيق**، دار الشرق، عمان، ١٩٩٩م .

– شبانة، ناصر، **المفارقة في الشعر العربي الحديث** ..... المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر ط ١، ٢٠٠٢م .

– الطرودي، أحمد مصفى الطرودي التونسي، (١١٦٧هـ)، **جامع العبارات في تحقيق الاستعارات**، تحقيق محمد رمضان الجربي، بدون تاريخ .

– عبد القاهر الجرجاني، عبد القاهر(٤٧١هـ)، **دلائل الإعجاز**، محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م .

– علوش، سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٥م .

– القزويني، الخطيب القزويني (٦٨٢هـ)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق : د.عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، مصر، ١٩٩٦م .

– لؤلؤة :عبد الواحد، **موسوعة المصطلح النقدي**، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٢م .

– مصلوح، سعد، **في النص الأدبي، (دراسات أسلوبية إحصائية)**، عالم الكتب في مصر، ٢٠٠٢م) .

– ميويك، دي سي ميويك **المفارقة وصفاتها**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، دار العلم للملاين، العراق، ١٩٧٧م.

– وهبة، مجدي وهبة، وكامل المهندس، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**،، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.

– يحيى بن حمزة، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، (٧٠٥هـ)، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، منشورات مؤسسة النصر، طهران، بدون تاريخ .

الدوريات العربية:

– إبـراهيم، نبيلـة إبـراهيم، **المفارقـة**، مجلـة فـصول، المجلـد الـسابع العـددان الثالـث والرابـع، سـبتمبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

* * *

22- Raaghib, N. (1998). *AL-Adab al-saakhir*.General Egyptian Book Organization (GEBO).

23- Shabaanah, N. (2002). *Al-Mufaaraqah fi al-shi`r Al-Arabi al-Hadeeth*. Al-Mumassasah Al-Arabeyyah li Al-Diraasaat wa Al-Nashr.

24- Sulaymaan, K. (1999). *AL-Mufaaraqah wa al-adab: A study in theory and application*. Amman: Daar Al-Sharq.

25- The Holy Quran.

26- Wahbah, M., & Al-Muhandis, K. (1984). Mu`jam al-muSTalaHaat Al-Arabeyyah fi al-lughah wa al-adab. Maktabat Lubnaan.

* * *

11- Al-Zamakhshari, M. (1985).*Asaas al-balaaghah*.General Egyptian Book Organization (GEBO).

12- Al-Zirkashi, B. (1988). *Al-Burhaan fi uloom Al-Quran.* M. Ibraaheem (Ed). Beirut: Daar Al-Jeel.

13- Ba`albaki, R. (1990).*Mu`jam al-muSTalaHaat al-lughaweyyah*. Daar Al-Ilm li Al-Malaayeen.

14- Husni, A. (1990). *Al-Mufaaraqah fi shi`r Uday Ibn Zeyaad Al-Abaadi.*Cairo: Al-Daar Al-Thaqaafeyyah li Al-Nashr.

15- Ibn Al-Atheer, DH. (1939). *Al-Mathal al-saa'ir.*M. AbdulHameed (Ed). Maktabat Al-Halabi.

16- Ibn Manzhoor, M., & Al-AnSaari, J. (1414).*Lisaan Al-Arab* (3rd ed.). Beirut: Daar Saadir.

17- Ibraaheem,N. (1987). AL-Mufaaraqah.*Majallat FuSool, 7*(3&4).

18- Kharyoosh, H. (1982). *Adab al-fukaahah Al-Andalusi*.Yarmouk University.

19- Loo'loo'ah, A. (1982).*Mawsoo`at al-muSTalaH al-naqdi*.Ministry of Culture and Information.

20- MaSlooH, S. (2002).*Fi al-naS al-adabi: Stylistic, statistic studies*. Egypt: Aalam Al-Kutub.

21- Mayock, D. (1977). *AL-Mufaaraqah wa Sifaatuha*. A. Loo'loo'ah (Trans.). Iraq: Daar Al-Ilm li Al-Malaayeen.

List of References:

1- Al-Abd, M. (2006). *Al-Mufaaraqah Al-Quraaneyyah* (2nd ed.). Cairo: Daar Al-Fikr Al-Arabi.

2- Al-Askari, A. (1971). *Kitaab al-Sinaa`atayn.* A. Al-Bijaawi & M. Al-Halabi (Eds.). Egypt: (n.p.).

3- Al-Hoofi, A. (2001). *Al-Fukaahah: USooluha wa anwaa`uha fi al-adab.* NahDHat MiSr.

4- Al-Jurjaani, A.(2000). *Dalaa'il al -i`jaaz*. M. Shaakir (Ed.). General Egyptian Book Organization (GEBO).

5- Alloosh, S. (1985).*Mu`jam al-muSTalaHaat al-adabeyyah al-mu`aaSirah*. Beirut: Daar Al-Kitaab Al-lubnaani.

6- Al-Ma`arri, A. (1977).*Risaalat al-ghufraan* (9thed.). A. AbdulraHman (Ed.). Cairo: Daar Al-Ma`aarif.

7- Al-Qazweeni, K. (1996). *Al-IDHaaH fi uloom al-balaaghah.* A. Husayn (Ed.). Egypt: Maktabat Al-Aadaab.

8- Al-Sakaaki, Y. (1987). *MuftaaH al-uloom*. N. Zoozoo (Ed.). Beirut: Daar Al-Kutub Al-Ilmeyyah.

9- Al-Taroodi, A. (n.d.). *Jaami` al-ibaaraat fi taHqeeq al-isti`aaraat*. M. A-Jarbi (Ed.). (n.p.).

10- Al-Yamani, Y. (n.d.). Al-Tiraaz al-mutaDHammin li asraar al-balaaghah wa uloom Haqaa'q al-i`jaaz. Tehran: Mu'assasat Al-NaSr.

Structural Differential in the CharacterPortrayal of IbnAl-QaariH inthe Epistle of Forgiveness (Risaalat Al-Ghufraan)

Dr. MaHmood Al-HalHooli
Arabic Language Department
College of Arts- Al Hashimya University
The Hashemite Kingdom of Jordan - Zarqa'

Abstract:

This study examines types of structural differential anddenotations of bright statements whereby what is said differs from what is meant from an artistic and rhetorical perspective. The study does not investigate all types of differentials. It is exclusively concerned with examining certain forms of structural differentials. Moreover, it does not tackle the Epistle of forgivenesson the basis of religious prosecution. It is known that Ibn Al-QaariH, the Aleppene writer, sent a letter to Abu Al-Alaa' explaining a number of linguistic and critical views regarding some controversial issues prevailing at that time, including Ibn Al-QaariH's favoring of the poetry of Al-BuHturi over the poetry of Al-Mutanabbi. This angered Abu Al-Alaa' and incited him to write the Epistle of Forgiveness to ridicule the issues that prevailed in his era, using the art of differential as a fierce weapon against those whom he disagreed with in different cultural fields.